

الكتاب الأول

في قواعد الدين

وفيه تسعة أبواب

الباب الأول: في النظر والاستدلال.

الباب الثاني: في أول ما يجب على العباد المكلفين.

الباب الثالث: في التوحيد.

الباب الرابع: في نكت الأئمة في التوحيد.

الباب الخامس: في عجائب خلقة الإنسان.

الباب السادس: في مسألة داخل للعالم وخارجه.

الباب السابع: فيما يلزم المكلف اعتقاده.

الباب الثامن: في فرق الأمة.

الباب التاسع: في حكم من تبلغه الدعوة.

الباب الأول

في النظر والاستدلال

وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول

فيما يلزم بالنظر

اعلم أن النظر قانون الاستدلال في الأمور، وحاكم العدل، وقاضي الصدق، ومعيار الشريعة، ومحك الحق والباطل، وبريد المعرفة، وسلطان الحقيقة، وبرهان الشريعة، وترجمان^(١) الإيمان، وجاسوس الكلام، وغارس الإسلام، وحجة الأنبياء، ومحجة الأولياء، والسيف القاطع على الأعداء، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٥٤].

فالنظر رأس السعادة عند أهل الدنيا والدين. فبقاء الدولة، وقاعدة الأمور وأساس التدابير، وصحة الاعتقاد، وخلاصة التوحيد، في ناصية النظر. كما أن أساس الكفر والشرك في ناصية التقليد، وتذكر ساعة في صنع الله وتفكر لحظة في فعل الله أفضل، وأحسن من عبادة سبعمائة سنة قيام ليلها وصيام نهارها، وإليه إشارة قوله ﷺ: «تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة»؛ لأن النظر يوصل العبد إلى المعرفة، فيعرف الله تعالى، ومن عرف الله تعالى فقد نال العز الأبدي والسعادة الكلية، يا بردها على الفؤاد والكبد. فأهل الدين بالنظر يعرفون حقيقة الدين والمعارف، كما أن أهل الدنيا بالنظر يحصلون مقاصد الدنيا، ولا يمكن

(١) تَرْجَمَان: بالفتح ثم السكون ثم الضم ثم الفتح.

معرفة سبيل النجاة من الهلاك إلا بالنظر عرفه من عرفه وجهله من جهله.

الفصل الثاني

في حده وحقيقته

فأقول: حقيقة النظر هو الفكر^(١) في حال المنظور فيه لمعرفة حكمه، وقيل: هو فكر القلب في شاهد يدل على غائب، فإن قيل: أطنبت الخطبة وأحسن السؤل، فما حجتك على صحته؟ وإنه مؤد إلى العلم.

فأقول: في العالم حق وباطل، والناس صنفان: أهل الحق وأهل الباطل، وأصحاب الصدق وأصحاب الكذب، ولا يتصور معرفة الحق من الباطل إلا بالنظر. فالآدمي خلق كامل الرأي عظيم التسيير داركاً للمعاني، وأعطاه الله الإدراك وهو العقل، فإذا استعمله على وجهه وقع عنده العلم بالمنظور فيه كما يقع العلم بالمدرجات عند الإدراك. فعند فتح الأجنان يبصر الأشياء، وعند الاستماع والإصغاء يسمع، وعند الاستعمال اللسان يتكلم، فعند النظر يعلم، ولو كان فاسداً لم يتضمن العلم؛ لأن الفاسد لا يحكم له بقضية صحيحة.

والدليل على أن النظر يوصل إلى العلم - وهو طريق الحقائق - فزع العقلاء إليه إذا التبس عليهم حكم شيء من الغائبات، كما يفزعون إلى البصر والسمع في تعريف ما يخفى من أحوال المرئيات والمسموعات. وإذا التبس عليهم شيء من أحوال الحواس الذوق والشم واللمس رجعوا إلى النظر.

دليل آخر: عرفنا أن النظر دليل إلى العلم ضرورة، فإن عقلاء العالم وجهابذة المعاني مهما نزلت بهم نازلة أو حدث لهم حادث من المشكلات المهمات

(١) الفكر: ترتيب أمورٍ مطومة تؤدي إلى مجهول. التعريفات - للعلامة الجرجاني.

فزعوا إلى النظر، وتفكروا وتدبروا ليعرفوا وجه الصواب من الخطأ، والحق من الباطل. فعرفنا بضرورة العقل أن النظر طريق العلم، فها نحن معاشر المسلمين نعرف الحق من الباطل بالنظر، ونعرف الكفر من الإيمان بالنظر، ونعرف الله ورسوله بالنظر، وأن الباطنية^(١) شر خليفة الله، وهم زنادقة كفار ودهرية ضلال. ونعرف أن التقليد باطل، ولا معصوم إلا رسول الله ﷺ على رغم الباطنية أعداء الله. كل ذلك بالنظر.

وقد قيل: كيف نعرف النظر، أو نعرف الشيء بالشيء، هذا بديع في القياس بعيد يا قاضي العدل إذا حكم عدل؟ فأقول: عن صبوح يرفعون، عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء^(٢)، عرفت صحة النظر بما أعلم به صحته في نفسه، فتصحيح الشيء بما يدعى له الصحة غير متناقض، وإفساد الشيء بما يدعى له الفساد متناقض؛ لأنني إذا صححت النظر بجزء من المنظور دخل ذلك الجزء من النظر أيضاً في جملة ما صححته، فعرفت صحته مما به صحته في نفسه.

(١) الباطنية: ليست الباطنية من فرق الإسلام. وظهرت في أيام المأمون من حمدان قرمط ومن عبد الله بن ميمون القداح. وقد أكفروا أبا بكر وعمر وعثمان وأكثر الصحابة بإخراجهم علياً من الإمامة في عصرهم. وضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس عليهم بل أعظم مضرة من الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليهم. الفرق بين الفرق - للإمام أبي منصور عبد القاهر البغدادي - تحقيق / طه عبد الرؤوف سعد - ط مؤسسة الحلبي - ص ٦٨، ١٥٢، ١٦٩.

الفصل الثالث

في وجوبه

فأقول: إن النظر واجب؛ لأن معرفة الله تعالى واجبة، ولأن تركه لا يأمن العقاب، وهذا معنى الواجب. وبيان أن معرفة الله تعالى واجبة، الآيات الدالة عليها، وإجماع الأمة.

فلما الآيات فقوله تعالى: ﴿ قَامَتْ أَنْتَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩] ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٠] ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَا كَانَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١] ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠] حتى قال الطمء: نزلت ثلاثمائة آية في الحث على النظر والمعرفة. والإجماع منعقد على ذلك، ولأن شيئا من الشرائع في الصلاة والزكاة والقرب لا يصح التقرب به إلى الله تعالى إلا بعد معرفة الله سبحانه؛ لأن العبادة لا يصح أداؤها إلا بالنية، والنية قصد القلب إلى أفراد السرب بالعبادة، وقصد من لا يعرف بفرد العبادة لا يصح.

واعلم أن الطريق إلى المعرفة هو النظر الصحيح، فإن معرفة الله تعالى ليست ضرورية^(١)؛ إذ لو كانت لما تصور فيه الخلاف، كمعرفة الليل والنهار، ووجود الآدمي. فإذا ثبت أن معرفة الله سبحانه لا يمكن إلا بالنظر، فالنظر واجب؛ لأن ما لم تتأد العبادة إلا به كان واجبا في نفسه، كالصلاة لا تؤدي إلا بالطهارة، فلا جرم تكون الطهارة واجبة، والأمر بالصعود إلى السطح أمر بنصب السلم.

(١) العلم الضروري: هو ما لم يقع عن نظر واستدلال، كالعلم الواقع بإحدى الحواس الخمس التي هي السمع والبصر والشم والذوق واللمس أو التواتر. الورقات - للإمام الجويني - تحقيق محمد عبد الرحمن المشاغول - ط الأزهرية للتراث - ص ٨.

الباب الثاني

في أول ما يجب على العباد المكلفين

إن أول ما يجب على المكلف القصد إلى النظر المؤدي إلى معرفة الله تعالى، فإن قلت إنك مدع، وإذا آل الأمر إلى الدعاوي، استوى كل طائع وعاوٍ.

فأقول: ما أبين الصبح لذي عينين، وإن الرحيل أحد اليومين، والدليل عليه: أن معرفة الله تعالى واجبة بالآيات المتقدمة، والسعادة هي اليقين، والدنيا هي فتنة الدين، وما سواه فضلال مبين. فماذا بعد الحق إلا الضلال. فأنى تصرفون؟

واعلم أن الواجب اشتقاقه من السقوط واللزوم، يقال: وجب الحائط إذا سقط وحده في الشرع المنقول وقضية المعقول ما يستوجب اللزوم والعقاب بتركه^(١).

وحد النظر هو: فكر القلب وتأمله في حال المنظور فيه، وأقمت الدليل على أن قاعدة الدين هو النظر؛ لأن المسلمين من لدن آدم عليه الصلاة والسلام إلى منقرض العالم إذا نزلت بهم نازلة يرجعون إلى النظر والفكر، سواء كان في أمر الدين أو الدنيا، ويقول بعضهم لبعض: انظروا وتفكروا. ولا يقولون: اسمعوا وتقلدوا، خلافاً لما يدعيه الباطنية الضلال، والملاحدة الجهال، وقال تعالى: ﴿مَلَّ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨] ولم يقل: من معلم، وقال: ﴿مَا تَأْتُوا بِمَنْتَكُم﴾ [البقرة: ١١١] ولم يقل: معصومكم وبركاتكم، وقال: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَلَيْبٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ٢٠١] ولم يقل: يسمعوا وقال: ﴿عَكْرِبٌ ثَمِيَةٌ﴾ [النحل: ١٠٣] ولم يقل: حبشي.

(١) الواجب: ما يترتب على فطره الثواب، ويترتب على تركه العقاب.

فعرفت أن الدين بالحجة والبرهان دون التقليد^(١) الذي هو عصا العميان، والعقلاء بقضيتهم وقضيضهم ينظرون في أمر الدين والدنيا لمعرفة الصالح من الفاسد، والसार من الضار، فلولا أنه طريق واضح ومنهج للاح لما فزعوا إليه. فالناس أكيس من أن يمدحوا رجلاً حتى يروا عنده آثار إحسان^(٢)

فإن قيل: يا ناصر الدين وفارس المتقين لقد شفيت عنتي، وأزحت غلتي، فمن الموجب الله تعالى أو رسوله ﷺ أو العقل؟ ففي هذا مزلة الأقدام ومدحض الأقدام، فأقول:

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقيناً^(٣)

الموجب هو الله سبحانه؛ لأنه خالق الأعيان وموجد الخلق، فالأصل في الخطاب خطاب الله تعالى، فإنه دليل بنفسه، وما بعده من الخطاب فرع خطاب الله، صار بخطاب الله دليلاً من حيث إنه خالق الأعيان له الخلق والأمر، وما سواه دليل من وجه ومدلول من وجه^(٤) مثلاً: خطاب رسول الله ﷺ فإنه مدلول خطاب الله، إذ بخطاب الله صار دليلاً، قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧] فلولا خطاب الله لما عرفنا خطاب رسول الله، وخطاب رسول الله دليل الإجماع، والإجماع مدلوله وهو دليل القياس، والقياس مدلوله وهو دليل الحكم. والخطاب أمر ونهي، وهما بيان في حقيقة الطلب والاستدعاء، فأمر رسول الله ﷺ واجب بأمر الله، وطاعته معترض لأمر الله، فإذا أمرنا الله بشيء

(١) التقليد: أخذ قول القائل من غير معرفة دليله.

(٢) البيت من بحر البسيط، ووزنه: (مستفعلن فَعَلَنَ مستفعلن فعن)، مرتين.

(٣) البيت من بحر الوافر.

(٤) أي: مدلول عليه.

ونهاياتنا عن شيء فكاننا نسمع خطاب الله بتبليغ رسول الله، وبواسطته؛ لأننا لا نسمع من الله شفاهاً. والرسول مبلغ ومبشر ومنذر، بشير للموحدين ونذير للملحدين، وكذلك أقوال الصحابة رضي الله عنهم حجة بخطب رسول الله وأقوال العلماء حجة بخطب الرسول، وطاعة الأمراء واجبة بقول الرسول، وطاعة الزوج على زوجته والسيد على غلمته واجبة بقول رسول الله. فليعلم بأن هذا أصل عظيم.

سؤال عظيم: اشتبه على زهاء خمسمائة فلسفي قالوا: كيف نعرف النبي أنه نبي: فإن الله لا يخاطبه مواجهة، ولو جاءه ملك احتمل أنه شيطان تصور بصورة ملك، فكيف نتق بقوله؟

الجواب: البراهمة^(١) أوتوا حين كفروا من هذه الشبهة، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين فنقول: نعرف النبي أنه نبي بطرق ثلاثة:

الأول: أن يخلق الله له علماً ضرورياً، فنعرف أنه رسول الله.

الثاني: أن يظهر الله آيات وعلامات، فيضطر الرسول إلى أنه من قبل الله، وأن البشر يعجز عن مثله.

الثالث: أن يخبره الله بما في قلبه وصدرة، فيضطر النبي إلى معرفة كلامه؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا الله، عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً.

(١) البراهمة: من الفرق التي لها حدود وأحكام دون كُتُب. وهم من الهند، ومن المنكرين للنبوات. انتسبوا إلى رجل منهم يقال له براهيم، وقد مهدوا لهم نفي النبوات أصلاً. الملل والنحل - للإمام الشهرستاني - ج ١، تحقيق/ السعيد المنوّه - ط مؤسسة الكتب الثقافية - ص ٢٩، ج ٢، ص ٢١٨، ٢١٩. وللإمام الشافعي كتاب في الرد عليهم.

الباب الثالث

في التوحيد

فإن قيل: ما حد التوحيد من الموحّد؟ فأقول: على الخبير سقطت؛ حد التوحيد: العلم بأن الله سبحانه واحد بصفاته التي هو عليها، من كونه حياً قادراً، عالماً مريداً، سميعاً بصيراً، متكلاً.

والموحّد: هو العلم بأن الله واحد، حي عالم قاهر، مريد سميع بصير، متكلم.

والتوحيد: أن يعلم أن الله واحد قديم، لم يزل ولا يزال، كان ولا مكان، وهو الآن على ما عليه، كان عالم بعلم أزلي، قادر بقدره أزلية، يعطى مثاقيل الجبال وأوزانها، وأوراق الأشجار وكمياتها، وقطرات البحار، ويعطى عدد الحيوان والدواب ومواضعها، يعلم كم المؤمن وكم الكافر وكم الذكر وكم الأنثى وكم الأحياء وكم الأموات، يسمع كلام نفسه، لا يدخل في الوهم، منزه عن التقدير والتحديد، مقدس عن خطرات خاطر؛ لأن كل ما يقدره الوهم يكون متلوّناً مقدراً أو مشبهاً بشيء، والله مقدس عن جميع ذلك وكل ما يخطر بالبال، فالله بخلاف ذلك الشيء، وخالق ذلك الشيء، فمن اعتقد هذا فمؤمن موحّد حقاً. وجملة التوحيد في حرف واحد وهو: أن يعلم العبد أن القديم لا يشبه المحدث، وأن الله سبحانه لا يجوز عليه الاتصال والانفصال والقرب والبعد والحلول والانتقال والطبع والغش. وقال بعض العلماء: خلاصة التوحيد أن يعتقد العبد أن كل ما يتقدر في الوهم ويتصور في خاطر، فالله بخلاف ذلك، وخالق ذلك، وأن الله تعالى غير مشبه بالذوات، وذاته غير معطلة عن الصفات.

الباب الرابع

في نكت الأئمة^(١) في التوحيد

أول دليل على أجل جليل، قال الإمام المطليبي رحمته الله: «استقبلني سبعة عشر زنديقاً في طريق غزة، فقالوا: ما الدليل على الصانع؟ فقلت لهم: إن ذكرت دليلاً شافياً، هل تؤمنون؟ قالوا: نعم، قلت: نرى ورق الفرصاد^(٢) طبعها ولونها وريحها سواء، فيأكلها دود القز فيخرج من جوفها الإبريسم^(٣)، ويأكلها النحل، فيخرج من جوفها العسل، وتأكلها الشاة فيخرج من جوفها البعر، فالتبع واحد إن كان موجباً عندك فيجب أن يوجب شيئاً واحداً^(٤)؛ لأن الحقيقة الواحدة لا توجب إلا شيئاً واحداً، ولا توجب متضادات متنافرات، ومن جوز هذا كان عن المنقول خارجاً، وفي التيه والجأ، فاتظر كيف تغيرت الحالات عليها؟! فعرفت أنه فعل صانع عالم قادر، يحول عليها الأحوال ويغير التارات، قال: فبهتوا، ثم قالوا: لقد أتيت بالعجب العجاب، فأمنوا وحسن إيمانهم». وجاء رجل إلى الإمام أبي حنيفة - رحمه الله

(١) النكت: جمع (نكتة)، وهي مسألة لطيفة أخرجت بدقة نظر وإمعان فكر، من نكت رُمحه بأرض: إذا أثر فيها، وسميت المسألة الدقيقة نكتة لتأثير الخواطر في استنباطها. التعريفات - للإمام الجرجاني - ص ٢٢٠.

(٢) الفرصاد: هو التوت، أو حمّله، أو أحمره. "القاموس المحيط".

(٣) الإبريسم: نوع من الحرير.

(٤) لأن هؤلاء الزنادقة كان إيمانهم بالطبيعة وأنها هي الفاعلة، وأن الأشياء تفعل بطبائعها لا بفعل خالقها ومدبرها وخالق الطبع فيها، ولو تخلفت إرادته لما كان في طبعها ثمت فائدة ولا عمل، فالنار تحرق بخلق الإحراق عند مماسستها، ولو لم يخلق الله الإحراق لما أحرقت النار أبداً.

تعالى- فقال: ما الدليل على الصانع؟ قال: «أعجب دليل النطفة التي في الرحم والجنين في البطن، يخلقه الله في ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة».

ثم إن كان كما زعم أفلاطون الزنديق: «أن في الرحم قلباً منطبعاً ينطبع الجنين فيه»، فلزم الحمار أن يكون الولد إما مينناً أو مذكراً، لأن الحقيقة لا تختلف. فلما رأينا المرأة تلد ذكراً، ومرة تلد أنثى، ومرة توأمين، وطورا ثلاثة. وتريد أن تلد فلا تلد، وتريد أن لا تلد فتلد، وتريد الذكر فتكون أنثى، وتريد الأنثى فيكون الذكر، على خلاف اختيار الأبوين. فعرفنا قطعاً أنه قدرة قادر عالم حكيم، وأن الفلاسفة ينادون من مكان بعيد. لقد هلكوا وبالله كفروا، ووقعوا في الهوى، فتباً لمن يدعي الفهم وهو أعمى.

دليل: قال الشافعي رحمه الله وقد سئل عن التوحيد؟ فقال: «رأيت قلعة حصينة ملساء ولا فرجة فيها، ظاهرها كالفضة، وباطنها كالذهب الإبريز، وجدرانها حصينة محكمة، ثم رأيت الجدار ينشق، فيخرج من القلعة حيوان سميع بصير مصوت، فطمت ضرورة أن الطبيعة لا تقدر على ذلك، وأنه فعل صانع حكيم. فالقلعة هي: البيضة، والحيوان هو: الدجاجة».

دليل آخر: سأل هارون الرشيد الشافعي رحمه الله عن التوحيد؟ فقال: «اختلاف الأصوات، وتردد النغمات، وتفاوت اللغات يا أمير المؤمنين، دليل على أن المحرك واحد. والنيران الموقدة المتضادة في تركيب الآدمي، فيألف بعضها على بعض لمصلحة البنية، وقوام البشرية دليل على الصانع».

دليل آخر: قال حكيم: اسأل الأرض من شقق أنهارك، وأوتد أوتادك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك جواراً^(١) فقد أجابتك اعتباراً.

(١) الجوار: من جأر، أي: رفع صوته.

ويقال: شيطان صامتان ناطقان: الوقت والقبر، ويقال: ما الأشياء الصامتة الناطقة؟ يقال: الدلائل المخبرة والعبر الواظنة. دليل آخر ذكره المقدسي قال: من له ملك العالمين، والناس أجمعين، عنده صواعق الزلزلة، وطوارق الحوادث، في وقت الاضطراب في البراري والبحار لذي الجوع والعطش إلى الله تعالى. فهذا دليل على الصانع، فإن المؤمن والكافر إذا اضطرا في البر والبحر لا يفزعان إلى الشجر والحجر، بل يفزعان إلى الله سبحانه كما يفزع الصبي إلى ثدي أمه، فأمة الترك تقول: يا تكري، وأمة الهند تقول: يا لاح، وأمة المجوس تقول: يا يردان، وأمة العرب تقول: يا الله، وأمة العجم تقول: يا خدائي. قال يزيد بن عمير في الجاهلية:

إلى الله أمدي مدحتي وثنائيا	وقولا رضياً لا يني الدهر باقيا
إلى الملك الأعلى الذي ليس فوقه	إله ولا رب سواه مدانيا
فأنت الذي من فضل من رحمة	بعثت إلى موسى رسولا مناديا
فقلت له اذهب مع هارون فناديا	إلى الله فرعون الذي هو طاغيا ^(١)

دليل آخر: سئل الشافعي رحمه الله عن التوحيد؟ فقال: «بالنوم واليقظة عرفت الرب، أريد السهر فيغلبني النوم، وأريد أن أنام فيغلبني السهر». ترى الرجل العادي الضخم العَبَل^(٢) يغلبه النوم من اختياراته وقد أسره. وقد قال العلماء: النوم واليقظة مثل الحياة والنشور، وكما يشتهي أن يبيت لا يشتهي أن يموت، وكما لا يشتهي في حال النوم أن يستيقظ لا يشتهي أن يحيا، فحيا إلا بإذن الله ذلك، تقدير العزيز العليم.

دليل آخر: قال الحسن بن عليّ: «عرفت الله بنسخ العزائم، ونقض الهمم،

(١) الأبيات من بحر الطويل.

(٢) العَبَل: الضخم من كل شيء. "القاموس المحيط".

وضعف الأركان، وتحويل الحالات في الأزمن.».

وقال آخر: بموت الملوك وإبقاء الفقراء. وقال آخر: «يَحَظُّ الْجَهُولُ، وحرمان العاقل.» وقال آخر: «عرفت الله بليل داج، ونهار وهاج، وسماء ذات أبراج، وبحار ذات أمواج، ورياح ذات عجاج، وأرض ذات سبل وفجاج، وجبال مثبته بلا درج ومعراج، دليل على رب حكيم فراج.».

دليل آخر: قال شمس براق، ومعصرات ذات إبراق، وأشجار ذات أوراق، وقلوب ذات فرح وانشقاق، دليل على حكيم خلاق:

الحمد لله كم في الأرض من حكم	تنبى اللبيب عن الأيام والقدر
إن شئت في فلك أو شئت في رجل	أو شئت في مدر أو شئت في حجر
كل يدل بأن الله خالقه	لا يستطيع دفاع النفع والضرر ^(١)

فلنمسك عنان القلم فإن هذا الباب لا ينتهي إلى حد.

الباب الخامس

في عجائب خلق الإنسان

ولقد أبدع الله سبحانه معاشر المسلمين الآدمي في صورة عجيبة وخلقته بديعة، يعلم بعقله ويعي ببصيرته، ويتكلم بلسانه. فاليدان لاستخدام الأشياء، والرجلان للسعي، والعينان لمشاهدة الدنيا، والمعدة للهضم، والكبد لطبخ الغذاء، والطحال للفكرة، والأمعاء للفضول، والفرج لإقامة النسل، والذكر آلة لذلك، فتبارك الله أحسن الخالقين. والرأس أشرف الأعضاء، ويقال: الرأس صومعة الحواس، ومواده من القلب، وخلقته بأعضاء مفردة ومزدوجة، فالمفرد مذكر في

(١) الأبيات من بحر البسيط.

اللغة، والمزدوج مؤنث. فجعل الرأس مفرداً للاكتفاء به، فلو جعل له رأسين لكان زيادة من غير فائدة. وخلق اليدين مزدوجة، لحاجة كل واحدة إلى إعانة الأخرى كما قال الصادق عليه السلام ^(١): خلق الله في شبر من الإنسان أربع جواهر، وهم: العينان وماؤهما مالح، ولولاه لذابتا؛ لأنهما شحمة. والأذن وماؤها مرٌّ، ولولاه لما امتنعت الهوام من دخولها. والمنخر وفيه حموضة الاسترواح والاستنشاق. والفم وماؤها عذب الاستطعام.

فسبحان من أنطقه بلحم، وأبصره بشحم، وأسمعه بعظم. وأعجب من هذا تصور في الرحم في ظلمات ثلاث: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، حيث لا تراه عين ولا تتاله يد، فيخرج سويّاً. فلو خلق له لسنتين لكانا ثقيلين عليه من غير حاجة، فلو تكلم بأحدهما كان الآخر معطلاً، وإن تكلم بكلام واحد كان أحدهما لغواً، وإن تكلم على خلافه لم يدر السامع على أي القولين يقول: فتبارك من جعل لمنافذ البول والغائط إشراجاً يضبطها لكي لا يجري جرياً دائماً، فيفسد عليه عيشته، وفي حسن التدبير أن يكون الخلاء في أستر موضع من الدار، فكذا المنفذ المهيأ للخلاء في جسد الإنسان في أستر موضع. وجعل الريق يجري دائماً إلى الحلق فلا يجف، فلو جف الحلق واللهاة والفم لهلك الإنسان.

فتفكروا معشر العقلاء، وتأمل يا صدر المعالي وعلم الرؤساء في الحفظ والفهم، فلو عدم الآدمي الحفظ والفهم لاختل عيشه، فلم يحفظ ماله وما عليه، وما أخذ وما أعطى، وما يتذكر من أحسن إليه ممن أساء، وتفكر في النسيان وعظم نعمة الله فيه، فلولاه لما سلا أحد عن مصيبيته ولا انقضت له حسرة ولا مات له حقد. ثم تفكر في الحياء خص به الآدمي دون سائر الأشياء، فلولاه لم

(١) يعني: السيد جعفر الصادق عليه السلام.

يقر الضيف، ولم يقع الوفاء بالعداات^(١)، ولم تقض الحوائج، ولم يتخير الجميل ولم يتجنب القبيح. وتفكر في كتمان الأجل فلو علم الآدمي مدة حياته وكمية عمره لتنص عيشه، فلو عرف مقداره وكان قصيرا لم يهنأ بعيش مع ترقب الموت، بل كان بمنزلة من قد فني ماله وأشرف على الهلاك، ولو كان طويل العمر وثق بالعمر، فانهك في اللذات على أنه يبلغ شهوته ثم يتوب، وهذا مذهب لا يرضاه الله تعالى من العباد. ثم تأمل آخرأ في الأشياء المعدة في العالم، فالتراب للبناء، والحديد للصناعات، والخشب للسفن، والنحاس للأواني، والذهب والفضة للمعاملة، والجوهر للذخر، والحبوب للغذاء، والثمار للتفكه، واللحوم للمأكل، والطيب للتلذذ، والأدوية للتصحح، والدواب للحمولة، والحطب للوقود، والحشيش للدواب، والمسك والغير للشم، فلم يقدر المحصي أن يحصي هذا الجنس، ولو صنفنا كتابا في هذا الجنس لما استقصينا أفراده، والله تعالى أعلم.

الباب السادس

في مسألة داخل العالم وخارجه

اعلم أن الملاحدة - لعنهم الله - استغوت عوام المسلمين وضعفاء المؤمنين بهذه المسألة، فقالوا: كيف تعرفون الله وهو لا داخل العالم ولا خارجه؟ وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرُونَ أَلَهَ حَتَّىٰ تَدْرِيَهُ﴾ [الأنعام: ٩١]. فلا يمكن معرفة الله من جهة العقل، وإنما تمكن من جهة المعصوم، كما هو مذهبننا.

نقول: من قال إن معرفة الله تعالى مستحيلة غير معقولة، فقولته إحد كقولكم؛ لأنه مخالف للكتاب والسنة، وأقوال مائة ألف وأربعة وعشرين ألف نبي،

(١) عداات: جمع عداة بمعنى: الوعد.

ومخالف للمعقول.

أما الكتاب، فقال الله تعالى: ﴿ قَالَتْ أَنْتَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩] ﴿ قَاعَلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٠]، فلو لم تكن معرفة الله تعالى ممكنة كان الخطاب محالاً، فإن الشرع لا يخالف قضايا المعقول، بقول: الآدمي لا ينظر، والأعمى لا يبصر، والأنبياء بعثوا لدعاء الخلق إلى الله.

وأما المعقول: فالصنع لا بد له من صانع، والعالم مصنوع فلا بد له من هذا، أما نحن نعرفه بتأويل عقولنا، فمن اجتاز في برية فرأى قصرأ مشيداً وبناءً رفيعاً فجز من نفسه أنه اتفعل بنفسه من غير فاعل لم يكن إنساناً، بل يكون مجنوناً بمارستان^(١)، فالعالم مع تركيبه العجيب لا يكون أقل من بناء جص^(٢)، وهذا ظاهر. فإن قالوا: أردنا به أنه لا تعرف كيفيته ولا آنيته. الجواب، قلنا: يا مخاذيل هذا تلبيس إبليس، فكيف تدعون كيفية ولا كيفية له؟ وكيف تسبون آنية ولا آنية له؟ فوصفه بشيء يستحيل في حقه محال. وقوله: لا داخل العالم ولا خارجه، قلنا: هذا السؤال في نفسه محال؛ لأن قائله لا يخلو: إما أن يكون مقراً بأن العالم محدث، أو منكر. فإن كان مقراً، فلا كلام معه لأنه إذا علم أن تفسير العالم كل موجود سوى الله، كيف يستجيز أن يكون القديم ملابساً ومشاكلاً للحادث وخارج العالم عدم محض؟ فكيف يقال ذات الباري في العدم؟ فعرفت أن السؤال محال. والجواب الصحيح أن تقول: الباري واجب الوجود، فكان قبل العالم، وجوده واجباً لا يعقل زمان لا يكون فكان، ولا مكان ولا تقدير مكان، فلما خلق العالم كان على

(١) المَارِسْتَان: بفتح الراء، دار المرضى، مُعْرَب. يعني المستشفى "القلموس المحيط" مع زيادة.

(٢) الجص: بفتح الجيم المعجمة، معروف، وهو الجير، وهو مُعْرَب (كَج). "القلموس" مع زيادة.

ما كان، والتغيير إنما يرجع إلى الحدوث. أما من كان واجب الوجود فتغيره محال، فلاح من هذا الأصل أن العالم عبارة عن المكان، والمكان جوهر، والجوهر والعرض مخلوقان^(١)، والله ليس بمحدود وليس من جنس الجواهر والأعراض، حتى يوصف بأنه داخل العالم وخارجه.

الباب السابع

فيما يلزم المكلف اعتقاده

وذلك أن يعلم حدوث نفسه وحدث جميع العالم، وأن الجواهر والأعراض محدثة، وإخراجه من العدم إلى الوجود، وجعل أعيان العالم أعياناً، وأعراضها أعراضاً، ويعتقد أن الصانع واحد قديم لم يزل موجوداً ولا يزال باقياً، ولا يعدم ولا يفنى، ولا يجوز عليه التغيير والانتقال، وأنه ليس بجوهر ولا عرض، ولا جسم ولا صورة ولا جسد، ولا حركة ولا سكون، ولا غم ولا فرح، ولا سهو ولا غفلة، وأنه بلا كيفية ولا آنية^(٢)، وأنه منفرد بإحداث الأعيان، لا خالق غيره.

ثم يعتقد قدم الصفات من قدرته، وعلمه وحياته بلا روح ولا نفس، وقدرته على مقدراته قدرة واحدة، ويدرك بسمعه جميع المسموعات، ويبصر جميع

(١) الأعراض: جمع (عرض)، وهو الموجود الذي يحتاج في وجوده إلى موضع أي محل يقوم به، كاللون المحتاج في وجوده إلى جسم يحله ويقوم هو به. والأعراض على نوعين: قارّ الذات، وهو الذي تجتمع أجزاؤه في الوجود كالبياض والسواد. وغير قارّ الذات، وهو الذي لا تجتمع أجزاؤه في الوجود كالحركة والسكون للتعريفات - للعلامة الجرجاني. وتقدم بيان معنى الجواهر أول الكتاب، ١٢٩.

(٢) آنية: نسبة إلى (الآن) يعني: لا يسأل عنه سبحانه بمتى التي هي للزمان فالزمان حادث وهو قديم أزلي أبدي.

المرئيات، ويرى ذاته وكلامه أزلياً، صفة قديمة قائمة به، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء، لا ضار ولا نافع إلا هو، ولا استطاعة مع الفعل ولا حجة على الله ولا حكم، بل هو الحاكم له الحكم والأمر، بعثه الرسل جائز، وأن محمداً ﷺ بالمعجزة الصادقة، وشريعته مؤيدة باقية إلى يوم القيامة، والإجماع حق، والجنة والنار حق، والصراط والميزان والحساب ويوم القيامة حق، وسؤال الملكين في القبر حق، والعذاب في القبر لأهل العذاب حق، والشفاعة حق، ومن شك في شيء من ذلك فهو كافر. ويعتقد أن الإمامة لأبي بكر أولاً، ثم لعمر، ثم لعثمان، ثم لعلي. ويعتقد في الباطنية والحلولية^(١) والناسخية^(٢) أنهم مرتدون شر من المجوس. هذا أقل ما يلزم المكلف اعتقاده.

(١) الحلولية: الذين يعتقدون حلول القديم سبحانه في الحادث من مخلوقاته - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

(٢) الناسخية: القائلة بتناسخ الأرواح، وأن الأرواح الصالحة والشريرة تحل في أجساد مخلوقات أخرى كالحوانات بعد موتها أو كالبشر، وهذا كفر بواح، فإنه ينافي التكليف وأن كل نفس بما كسبت رهينة فكيف بنا لو حلت روح فلان في جسد فلان، فمن منهما الكاسب للشر والفاعل للخير حتى يكون محاسباً أمام ربه؟.. إلى غير ذلك.

الباب الثامن

في فرق الأمة

افتترقت الأمة من أهل القبلة على اثنين وسبعين فرقة، أهل الحق منهم السنية الأشعرية، ومن سواهم فضلال.

فالتائفة الأولى: غلاة المعتزلة، ينفون الصفات. وغلاة المشبهة، يثبتون الجوارح والمكان لله تعالى، والقدرية يثبتون القدرة لأنفسهم، ويزعمون أن العبد خالق أفعاله. والمجبرة ينفون القدرة للعبد. والمرجئة والخوارج والنجارية^(١) والجهمية^(٢) والروافض والحروية^(٣)، فالمعتزلة عشرون فرقة: الواصلية أصحاب أصل بن عطاء، والعمروية أصحاب عمرو بن عبيد، والهديلية أصحاب الهذيل العلاف، والنظامية أصحاب نظام، والإسوارية والإسكافية والبشرية أصحاب بشر معتمد وبشر موسى، والمكارية والهاشمية والحاطية أصحاب أحمد بن حائط، والحمارية أصحاب عسكر مكرم، والمعمرية أصحاب معمر بن عباد، والثمامية أصحاب ثمامة بن أشرس، والجاحظية والكعبية والجناتية والبهشية والشيطنية.

(١) النجارية: تنسب إلى الحسين بن محمد النجار، ووافقوا المعتزلة في نفس الصفات من العلم والقدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر، ووافقوا الصفاتية في خلق الأعمال. الملل والنحل - الإمام الشهرستاني - ج ١ ص ٦٣.

(٢) الجهمية: أصحاب جهنم بن صفوان، وهو من الجبرية الخالصة، من أقواله: أنه لا يجوز أن يوصف البارئ تعالى بصفة يوصف بها خلقه، لأن ذلك يقتضي تشبيهاً، فنفى كونه حياً عالماً، وأثبت كونه قادراً فاعلاً خالقاً، لأنه لا يوصف شيء من خلقه بالقدرة والفعل والخلق. المصدر السابق - ج ١، ص ٦١.

(٣) الحروية: هم الخوارج.

فصل: أما المشبهة فتفرقوا على عشرين فرقة: الهاشمية أصحاب هشام، والمعيرية والمنهالية والرزارية واليولونية والكلابية أصحاب عبد الله بن كلاب، والزهيرية والحشرجية والكرامية والمأمونية.

فصل: والجبرية ثلاث فرق: الجهمية أصحاب جهم بن صفوان الترمذي، والبكرية والضرارية.

فصل: والمرجئة ثلاث فرق: اليونسية الغسانية اليونانية اليومنية.

فصل: النجارية البرغوثة الزعفرانية المستدركية.

فصل: أما الروافض فأربع وعشرون فرقة: أربع فرق الغلاة السبانية والبابية المغيرة الهشامية والجناحية والمنصورية واليونسية والزيدية والصالحية والجارودية الحريرية اليعقوبية البترية الكيسانية الشريكية التناسخية الخليفة، يقولون لا تجوز الصلاة خلف غير الإمام. الرجعية المترفضة.

فصل: أما الخوارج فعشرون: فرقة الأباضية المحكمية الأزارقة النجدية الصعيرة الميمونية العشيبيية الخمرية الحارمية المجهولية الصليبية الأخنسية المعيدية الرشيدية السابية اليزيدية الحارثية المكربية الفضيلية السمراخية الضحاكية، فهؤلاء فرق الأمة^(١) ضلوا وأضلوا، وبقي من وفقه الله وعصمه على الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال؟

(١) راجع في معرفة اعتقادات هذه الفرق كتاب: "الملل والنحل" للإمام الشهرستاني، وكتاب "الفرق بين الفرق" للإمام عبد القاهر البغدادي، وغيرها من كتب الفرق والعقائد الكثيرة.

الباب التاسع

في حكم من تبلغه الدعوة

قال الشافعي - رضي الله عنه: ولا أظن أن على وجه الأرض أحداً لم تبلغه دعوة رسول الله ﷺ، فلو قدر أن أناساً في جزيرة أو بلدة في أقصى العالم من الترك والروم أو الهند لم تبلغه دعوة محمد ﷺ فلا يجوز قتالهم ما لم تعرض الدعوة عليهم ولا يجب عليهم، أن يسلموا من قبل العقل؛ لأنه آلة وليس بموجب، والموجب هو الله تعالى. فإن قتل منهم أحد تؤخذ دينته، وإن ماتوا قبل سماع الدعوة فلا عقاب ولا حساب، لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُمَدِّينَ حَتَّىٰ بَعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥] وقالت المعتزلة: يجب عليهم أن يؤمنوا بالله تعالى بناء على أصلهم أن العقل موجب للمعرفة^(١)، وإن عرضت عليهم الدعوة فأبوا وامتنعوا فهم معاندون يجب قتالهم.

قاعدة: يتصور عقلاً على مذهب أهل السنة أن يكون جماعة في جزيرة لم يأتهم رسول ولا معصوم، فنظروا وتفكروا من قبل أنفسهم فعرفوا الله سبحانه وآمنوا به، وإن لم يروا نبياً قط، وقالت الملاحدة لعنهم الله: لا يتصور ذلك وأن عمرو ألف سنة ونظروا ألف سنة؛ لأن المعرفة عندهم سمعية تتلقى من النبي أو الإمام المعصوم. وهذا خزي من قائله قاتلهم الله أتى يؤفكون.

(١) فمن أصول المعتزلة: أن العقل يدرك حسناً وقبحاً في الأشياء بذاته، وهو القول بالتحسين والتقبيح العقليين، وأما الأشعرية فلا يجعّون الحسن والقبح إلا من جهة الشرع، إما كان من قبيل نفرة الطبع من القبيح وقبوله للحسن لا فيما يتعلق بالشرائع حلالها وحرامها وواجبها ومندوبها.....